المحاضرة السابعة: عمود الشعر

لقد أشار النقاد في بواكير مؤلفاتهم النقدية إلى عمود الشعر العربي وهي طريقة القدامى، حيث نجد ابن قتيبة في حديثه عن بناء القصيدة يذكر أن الشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وهذه الأساليب ما هي إلا طريقة الأوائل في نظم الشعر، وكذلك نجد ابن طباطبا يتحدث عن " الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل ما قالته العرب".

فأساليب العرب ومذاهبهم هي طريقتهم التي رسموها لنظم الشعر، وقد اصطلح عليها بعمود الشعر، هذا المصطلح الذي نجده أول ما نجده عند الآمدي صاحب الموازنة عندما يفضل البحتري على أبي تمام، وذلك في قوله: "... لأن البحتري أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف ".

وعليه فعمود الشعر هو مجموعة التقاليد الشعرية التي يحرص عليها العرب في نظم أشعارهم.

ومذهب الأوائل ذكره الآمدي عندما تكلم عن أبي تمام وقال أنه فارق عمود الشعر، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة وذلك لان العرب "... إنما استعارات المعنى لما هو ليس له، إذا كان يقاربه أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه".

القاضي الجرجاني وعمود الشعر:

لقد نظر القاضي الجرجاني فيما انتهى إليه الآمدي في قضية عمود الشعر وتبنى منهجه في تحديده لمفهوم العمود، وذلك يتجلى بقوله: " وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبّه فقارب وبَدَه فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته ولم تكن العرب تعبأ بالتجنيس والمطابقة إذا حصل لها عمود الشعر"، ويمكن استخراج عناصر عمود الشعر التي نص عليها القاضي الجرجاني من هذا القول وهي:

- شرف المعنى وصحته.
- جزالة اللفظ واستقامته.
- المقاربة في التشبيه، الغزارة في البديهة.
- كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة.

إن القاضي الجرجاني تناول كل ما قدمه الآمدي حول عمود الشعر الذي خرج عليه أبو تمام وحدده الآمدي بالصفات السلبية، فعكسه ووضعه في صورة ايجابية كانت ثمرتها هذه الأركان المحددة لعمود الشعر.

المرزوقي وعمود الشعر (ت421 هـ):

لقد ألف المرزوقي كتابا سماه شرح ديوان الحماسة لابن تمام، ووضع له مقدمة عالج فيها مختلف القضايا النقدية التي وضحت تمام الوضوح لديه، فقد اطلع على آراء ابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة والآمدي والقاضي الجرجاني، وتكلم في عدة قضايا كاللفظ والمعنى، والطبع والصنعة والصدق والكذب وغيرها من القضايا.

ثم نظر في قضية عمود الشعر وسارع إلى تحديد عناصرها، حيث عاد إلى العناصر التي عدها الآمدي ووضحها القاضي الجرجاني، وزاد عليها ثلاثة عناصر، ولهذا أصبحت عناصر عمود الشعر في صورتها المكتملة وهي:

1- شرف المعنى وصحته.
2- جزالة اللفظ واستقامته.
3- الإصابة في الوصف.
4- المقاربة في التشبه.

وزاد عليها:

5- التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن
6- مناسبة ا لمستعار منه للمستعار له
7- مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينهما.

والسؤال المطروح هل يلتزم كل الشعراء بعمود الشعر حتى يكونوا مقدمين ؟

الجواب نجده عند المرزوقي في قوله: ".... فهذه الخصال هي عمود الشعر عند العرب، فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها، فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المقدم، ومن لم يجمعها كلها، فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان ". ووضع لكل ركن عيار؛ فعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال، وعيار الإصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز، وعيار المقاربة في التشبيه الفطنة وحسن التقدير، وعيار التحام أجزاء النظم والتئامها على تخيير من لذيذ الوزن الطبع واللسان. وعيار الاستعارة الذهن والفطنة وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية طول الدربة ودوام الممارسة.

عناصر عمود الشعر:

1- شرف المعنى وصحته: يجب أن يكون المعنى ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا أما عند الخاصة وإما عند العامة، ومدار الشرف يكون على الصواب وإحراز المنفعة. ولذلك أنكر الآمدي قول أبي تمام:

هادِيهِ جِذعٌ من الأراك وما تحت الصلا منه صُفْرة جِلس.

فقد شبه هادي الفرس (عنقه) بعود من الأراك، مع أن عيدان الأراك لا تغلظ حتى تصير كالجذوع.

2- جزالة اللفظ واستقامته:

اللفظ الجزل هو القوي الشديد وهو خلاف الركيك، أما استقامة اللفظ فتعني اتفاقه مع أصول اللغة وقواعدها المتعارف عليها.

3- الإصابة في الوصف: إذا كان الوصف صادقا تطمئن إليه النفس وتثق بصحته فتلك علامة الإصابة فيه، كما قال عمر (رضي الله عنه) في زهير:" ولا يمدح الرجل إلا بما فيه ".

4- **المقاربة في التشبيه**: اصدق التشبيه ما لا ينتقض عند العكس، وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادها.

5- التحام أجزاء النظم والتئامها على تخيير من لذيذ الوزن، أي تكون القصيدة كالبيت، والبيت كالكلمة تسالما لأجزائه وتقارنا، ولأن لذيذ الوزن يطرب الطبع لإيقاعه ولذلك قال حسان:

تَغَنَّ في كلِّ شعرٍ أنت قائلهُ إنّ الغناءَ لهذا الشعرِ مِضمارُ

6- مناسبة المستعار منه للمستعار له: وأن يكون التشبيه قريبا في الأصل حتى يتناسب المشبه والمشبه به.

7- مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، ويكون اللفظ مقسوما على رتبة المعنى فقد جعل الأخص للأخص، والأخس للأخس فهو البريء من العيب، وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود المنتظر.

إن نظرية عمود الشعر عند المرزوقي كانت من السعة بمكان، بحيث اتسعت لجميع الشعراء القدماء، وقد زاد المرزوقي من اتساعها حين جعلها ذات وسط وطرفين: الصدق والغلو والاقتصاد بينهما، إذ أضاف القول: "أحسن الشعر اقصده"، للقولين الآخرين:"أحسن الشعر أكذبه. وأحسن الشعر أصدقه ".